من روافد التفكير البلاغي عند القزويني

أ.الطاهر عفيف
قسم اللغة العربية / جامعة قالمة

الملّخص:

لا يختلف اثنان في مسألة التكامل والإفادة بين علوم اللغة عموما والعلوم الدينية من جهة، وبين هذه العلوم وعلم المنطق من جهة أخرى ، ولما كان علم البلاغة أحد أبرز علوم اللغة التي اتضحت فيها معالم هذه العلاقة ارتأيت أن أسلط الضوء على بعض العلوم التي ساهمت بطريقة، أو بأخرى في إرساء معالم النظرية البلاغية عند القزويني، الذي يتفق جميع النقاد أنه آخر من انتهى إليه الدرس البلاغي بتأليفه لكتابيه : "تلخيص المفتاح والإيضاح"، وكل من جاء بعده عالة عليه.فما هي هذه العلوم التي كانت رافد البلاغة القزويني ؟

Résumé:

Tout le monde est unanime quant à la question de la complémentarité et de l'intérêt réciproque entre les sciences du langage en général et les sciences de la Religion, d'une part, et entre ces sciences réunies et la Logique, d'une autre part.

Et comme la Rhétorique est l'une des sciences dans lesquelles se manifeste cette relation, j'ai jugé utile de mettre en lumière certaines sciences qui ont contribué , d'une manière ou d'une autre, à la mise en place de la théorie rhétorique chez Kezouini que tous les critique considèrent comme le dernier à s'occuper de l'étude rhétorique en écrivant le résumé et l'éclaircissement; tous ceux l'ayant suivi n'ont fait que reproduire son oeuvre. Quelles sont donc ces sciences qui constituent la Rhétorique de Kezouini?

مر التأليف البلاغي بعدة مراحل ، كان من أولاها: البلاغة قبل التأليف وذلك قبل ظهور الإسلام ، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة النشأة على هامش علوم أخرى مثل النحو واللغة والنقد، أما الثالثة فيمكن تسميتها بمرحلة الازدهار والتطور؛ إذ استقل علم البلاغة عن غيره من العلوم الأخرى ،وخير من مثلها إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، ثم توالت المؤلفات مقتفية منهجه وأثره ، وخير من سار على هديه الزمخشري في كشافه ، ليظهر في أواخر القرن السادس الإمام أبو يعقوب السكاكي (626هـ) ويؤلف مفتاح العلوم وضمنه أقساما ثلاثة : الأول للصرف ، والثاني للنحو ،والثالث للبلاغة ، هذا الأخير كان غير مصون عن الحشو والتعقيد ، وهذا ما حمل الإمام القزويني على تلخيصه ، هذا ما أشار إليه في مقدمة التلخيص مبينا سبب تأليفه :ً...وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا لكونه أحسنها ترتيبا...ولكن غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ..ألفت مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد...ً(1) ولما رأى خللا في هذا المصنف أعادتوضيحه بكتاب سماه الإيضاح الذي ورد في مقدمته " ...وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجملة وعمدت إلى ما خلا منه المختصر..." (2)

فكما نلحظ أن مؤلفي القزويني قد ارتبطا بمفتاح السكاكي، ومؤلفات الجرجاني ،كما ورد في مقدمة الإيضاح ،ومن يطلع على مؤلفي القزويني – التلخيص والإيضاح– يقف على العديد من العلوم التي رسمت توجهه الفكري وأصلت لمنهجه البلاغي، وليس علم المنطق فقط كما يدعي العديد من البلاغيين المعاصرين،ومن أبرز العلوم والاتجاهات التي ساهمت في إرساء معالم البنية الفكرية للقزويني – بالشكل المعروف– ما يلي :

1– الاتجاه الديني:

لقد استمد العلم البلاغي وجوده من الفكر الديني، وقد نبه الكثير من الباحثين قديما و حديثا إلى هذا الأمر.وكان من غايات هذا العلم تحقيق هدفين كبيرين: أما الأول فهو التعرف على أحكام الشرع. (3) وبما أن الشريعة الإسلامية أنزلت بلسان عربي مبين لابد

من معرفة دقائق هذا اللسان وخصائصه؛ لذلك اعتبر ابن خلدون معرفة علوم اللسان أمرا ضروريا لتعلقه بأحكام الشريعةً ...إذ أخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة".(4)

أما الهدف الثاني فهو معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله به من نظم، وجودة سبك،وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري: " إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديعً(5)

إن تأثير القرآن كان واضحا منذ البداية، فقد كان مدار الدراسات البلاغية منذ نشأتها بدءا بأبي عبيدة، ووصولا إلى القزويني الذي أشار في تلخيصه أن البلاغة استمدت مشروعيتها ومكانتها لارتباطها بالقرآن الكريم إذ يقول : ً فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا وأدقها سرا ....إذ به تعرف دقائق العربية و أسرارها. ويكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارهاً (6).فقد ربط مباحث البلاغة بغاية سامية، وهي فهم النص القرآني والكشف عن مواطن إعجازه.

إن اعتبار القزويني المباحث البلاغية وسيلة للوصول إلى المقصد الديني جعله يقسم البلاغة إلى طرفين: أعلى، وهو حد الإعجاز والمقصود هو القرآن الكريم، وما يقرب منه وهو الحديث النبوي، وأسفل وهو إذا غير الكلام عنه إلى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، وبينهما مراتب كثيرة يدخل ضمنها كلام الأدباء والشعراء وغيرهم من أرباب الفصاحة والبيان.

ثم إن التطرق لبعض المسائل البلاغية توحي مباشرة بالبعد الديني لباحثها، من ذلك باب الحقيقة والمجاز.هذا الأخير يعتبر من أهم الموضوعات في البلاغة العربية لما أثاره من جدل واسع لدى الأصوليين والبلاغيين ، وذلك لارتباطه باللفظ والنص الديني وبالعقيدة في الجانب التشريعي العملي من جهة، والاعتقادي النظري من جهة أخرى ، حيث تطلب

الخوض في آيات الصفات ونصوص الأحكام والتشريعات من القرآن والحديث النبوي و الاهتمام بدراسة الأساليب البلاغية وعلى رأسها البحث المجازي(7)

وقد بحث العديد من البلاغين موضوع الحقيقة والمجاز، ومن بينهم القزويني الذيعرف الحقيقةبقوله: " الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطبً . أما المجاز فينقسم إلى قسمين :مفرد ومركب، وقد أفاض في الموضوع في كتاب الإيضاح مناقشا إياه من جميع جوانبه وزواياه .

ويمكن القول أن اشتراط وجود القرينة في المجاز، – وهو غير مختص بالخبر، بل يجري في الإنشاء نحو" (يا هامان ابن لي صرحا)غافر الآية 36 ولابد له من قرينة(8) كان باعثا دينيا لأن القرينة تنفي صفة الكذب عن المجاز.

ويبدوا الباعث الديني بوضوح حين نتأمل شواهد القز ويني ، فقد اهتم بالشاهد القرآني محللا كلام الله عز وجل واقفا على ما فيه من روعة وجمال، حتى لا تكاد صفحة من صفحات كتابه تخلو من شاهد قراني، أو مجموعة من الشواهد فقد أحصى محقق كتاب التلخيص" الدكتور عبد الحميد هنداوي" 215 مائتين وخمسة عشر آية بين مكررة وغير مكررة وردت في كتاب التلخيص.

أما في الإيضاح فقد بلغ مجموع شواهده الثمانمائة شاهد منها أكثر من الستمائة آية

وبهذا يكون الخطيب الأوفر في الشواهد من الجرجاني والسكاكي، وهو يزيد على الجميع في القرآن ولا ينقص كثيرا عن عبد القاهر في الشعر(9).

ويرى الدكتور عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر أن القزويني قد اتخذ من علم البلاغة – بغير حق– وسيلة يخدم بها مذهبه، فصرف سبعة من نصوص الله سبحانه وتعالى عن ظاهرها وهي : صفة الاستواء والنفس العجب ، والمكرر اليدين واليمن والكف ومجيء الله يوم القيامة لفصل القضاء(10) وقد استشهد الباحث على ما ذهب إليه بالعديد من الأقوال والمصطلحات الواردة في كتابي الخطيب القزويني ، ولكن المقام لا يسمح لاستحضارها ومناقشتها .

ويتجلى البعد الديني واضحا في ترغيب القزويني الناس أن يتعلموا أصول الفقه والمعاني والبيان ، وهذا ما أشار إليه ابن حجر بقوله : "... وكان يرغب الناس في الاشتغال

بأصول الفقه والمعاني والبيانً (11) وهذا لتكامل العلمين– في نظره– وتوحد غايتهما وهي الغاية الدينية ، إذ كان القرآن الكريم مدار جميع هذه الدرسات شرعية كانت أم لغوية.

إن الشواهد السابقة–وغيرها مما لايتسع المقام لاستحضاره– لا تدع مجالا للشك – في اعتقادي – عن أثر الفكر الديني في بلاغة القز ويني، شأنه في ذلك شأن العديد من البلاغيين الذين سبقوه إذ اعتبر بعضهم البلاغة علما قرآنيا ، ثم إن وظيفة القزويني تركت بصماتها واضحة في تألفيه فقد اشتغل القضاء والخطابة المرتبطين أساسا بالعلوم الدينية .

أثر علم اللغة

للنحاة العرب يد طولى في دراسة الكلام وتحليله والوقوف عند الجملة ،وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير، أو ذكر أو حذف ...الخ فلا غرابة أن نجد تداخل النحو مع المباحث البلاغية وبخاصة في علم المعاني(12) لأن البحث البلاغي ينظر في جودة الأساليب بعيدا عن الانطباعات والانفعالات وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة قواعد اللغة وضوابطها.

وقد توقف القزويني عند الكثير من القضايا النحوية باحثا ومناقشا مبرزا أثرها في وضوح الأساليب أو غموضها ، ومن أهم المباحث النحوية الواردة في كتابه مبحث تقييد الفعل سواء بالمفعول أو بالشرط . أما تقييده بالمفعول لتربية الفائدة كقولك ضربت ضربا شديدا وضربت زيدا وضربت يوم الجمعة ، وضربت أمامك ، وضربت تأديبا وضربت بالسوط وجلست والسارية وجاء زيد راكبا ، وطاب زيد نفسا ، وما ضربت إلا زيد ، وما ضربت إلا زيدا(13) ثم تحدث عن ترك تقييد الفعل وسبب ذلك المنع من تربية الفائدة ، لكنه لم يعط أمثلة عن ذلك .

أما التقييد بالشرط فله العديد من الاعتبارات التي لا تعرف إلا بمعرفة الفروق الموجودة بين أدواته بنوع من التفصيل.مشيرا أن (أن هذا مبحث نحوي) علم النحو فصل القول فيه، ولهذا سيكتفي بالحديث عنً إنً وًإذاً وً لوً ، وهي أدوات شرطية لم تعط حقها من البحث في النحو ولهذا سيتحدث عنها في البلاغة.

أماً إنً وًإذاً فهما للشرط في الاستقبال والفرق بينهما أنً إنً لا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه كما تقول لصاحبك: إن تكرمنني أكرمك بخلاف إذا التي يكون الشرط فيها مجزوما بوقوعهً إذا زالت الشمس آتيك(14). وغالبا ما ترتبط إذا بالفعل الماضي؛ لأن الحكم مقطوع بوقوعه عادة بعكس إن المرتبطة بالفعل المضارع، وهومالم يشر إليه القزويني صراحة ، إذ لمح له مؤكدا ارتباط إذا بالفعل الماضي، وهذا ما ورد في قوله تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)الأعراف 131.وقد أفاض القزويني في تحليل هذا المبحث رابطا بين التحليل النحوي والاعتبارات البلاغية، مستشهدا بالعديد من الأمثلة والآيات القرآنية، والأبيات الشعرية لا سيما في كتابه الإيضاح بعكس التلخيص الذي اكتفى فيه بالشواهد القرآنية(15) ، لكنه لم يتوقف عندها بالشرح والتحليل بالصورة التي رأينها في الإيضاح على الرغم أن الشواهد الواردة في التلخيص هي نفسها الواردة في الإيضاح، بل إنه أضاف إليها شواهد و أبيات شعرية، وهذا يدل على أن الإيضاح كان أكثر إيغالا في الشرح و التحليل.

أثر الفلسفة والمنطق

باتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة الداخلين في الإسلام، وبروز احتكاك الفكر الإسلامي برواسب المعتقدات السابقة للمسلمين الجدد أخذ المسلمون على عاتقهم مهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية بنفس السلاح الذي أشهره خصومهم، فهم لما تعلموا الفلسفة للدفاع عن القرآن صار لهم منهج في البحث والتقرير والتدليل(16)

ولما كانت البلاغة من العلوم التي نشأت في أحضان الدراسات القرآنية فقد كانت على صلة بالفلسفة وعلماء الكلام في مراحل حياتها كلها من حيث نشأتها وتطورها، ومن ثم جمودها وتحجرها كما يقولون. ونظرة على أسماء أبرز رجالها تبين بجلاء أن البلاغة العربية عاشت جميع أدوارها في كنف رجال يهتمون بالفلسفة وتحت رعايتهم، وكذا جمهرة الأقلام التي خدمتها في عصرها. (17) هذه الصلة مردها ارتباط البلاغة في جميع

مراحل تطورها ونشأتها بقضية جوهرية وهي قضية الإعجاز القرآني، وما دار حولها من جدل منطقي ترك بصماته واضحة في التأليف البلاغي ولكن بدرجات متفاوتة.

ومن يقرأ كتابي القزويني يلحظ العديد من المصطلحات والأساليب الفلسفية، أو حتى إدخال مباحث بأكملها من صميم البحث البلاغي، فقد أدخل في علم البيان مبحث الدلالات، وتكلم عليها طويلا مقسما إياها إلى أنواع ثلاثة: دلالة التلفظ تدل إما على ما وضع أو غيره ، والثاني إما داخل في الأول كدخول السقف في مفهوم البيت أو الحيوان في مفهوم الإنسان، أو خارج عن خروج الحائط عن مفهوم السقف أو الضحك عن مفهوم الإنسان. وتسمى الأولى دلالة وضعية وكل واحدة من الأخيرتين دلالة عقلية .

وتخـص الأولى دلالة المطابقة والثانية بالتضمن والثالثة بدلالة الالتــزام، ولا يخفى ما لهـــذا المبحث من أهمية في الدراسات المنطقـــــية والفلسفية شأنها في ذلك شأن الدراسات المنطقية، ولبيان الصلة بين المنطق واللغة ومنه:نظرية الدلالات Théore de Significtions

كما استعمل مصطلحي الطرد والعكس عندما تحدث عن المجاز العقلي ومناقشته تعريفالسكاكيالذي رأى فيه نظراً لأنا لا نسلم بطلان طرده بما ذكر لخروجه بقولهً لضربمن التأولً ولا بطلان عكسه بما ذكر. (18)

ومن يقرأ حديثه عن الجامع في بحث الفصل والوصل يجد. عددا من المصطلحات الفلسفية

والمنطقيةمنها: التصور، التماثل، التجديد، العلة والمعلول، التضاد، شبه التضاد، شبه التماثل(19).

هذه كلها مصطلحات فلسفية استعملت قديما وحديثا، ولم تبق حكرا على الدرس الفلسفي، بل انتقلت إلى بعض الدراسات الأخرى التي كانت الفلسـفة منبتا خصبا لها مثل: البنيوية و السيمائية.

مما سبق ذكره يتبين بوضوح أن القزويني تأثر بالمنطق والفلسفة شأنه في ذلك شأن جميع بلاغي المدرسة الكلامية التي أسسها السكاكي، مما ضيق دائرة البحث البلاغي فأصبح قواعد ومصطلحات بعد أن كان يعتمد في تحليلاته على مقاييس أدبية وفنية، لكن لم يكن المنطق هو العلم الوحيد الذي أثر في بلاغة القزويني،إذ كان واحدا من عدة علوم (علوم اللغة،وعلم أصول الفقه)،لأن هذه العلوم هي الأخرى أفادت من المنطق بحكم حاجتها إلى المنهج بعد نضجها و اكتمال مادتها العلمية ،قصد الترتيب والتبويب، وهذا ما فعله القزويني، لكن طغى هذا الاهتمام على الشواهد التي أكثر منها دون التنبه إلى ضرورة تحليلها فنيا، ولو تفطن لذلك لكانا كتاباه من خير ما ألف في البلاغة العربية لاكتمالهما منهجيا، لكن خصوصية علم البلاغة جعلته أحوج ما يكون إلى الناحية الفنية الذوقية وهو ما وجب على الدارسين المعاصرين تداركه إن كنا نروم النهوض بالدرس البلاغي لا أن نبقىنكرر محاكمة السكاكي والقزويني- اللذان تأثرا بما كان في عصريهما-، وغير خاف على ذي بال غنى الأدب المعاصر بالشواهد البلاغية التي يمكن أن تكون موضوعا للدرس والتحليل.

الهوامش والإحالات

1- القزويني ، التلخيص في علوم البلاغة، ت عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية، ط 1 ، 1997 ص 5.

2- القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ت عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ،ط3 2007،ص 9

3- مهدي صالح السامرائي ، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربيية ، دار عمار ، عمان ، ط1 ،2008 ، ص 11.

4- ابن خلدون،المقدمة،ت خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر،بيروت ، دط ،2010 ،ص 565.

5-أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت محمد أمين الخانجي، مطبعة محمود بك ط1 ،1420 ، ص 1

6- القزويني ، التلخيص ، مصدر سايق، ص 5

7-سعيد النكر المنهجية الأصولية والبحث البلاغي،عالم الكتب الحديث، إربد ط1 ، 2012، ص 72

8-التلخيص، مصدر سابق ، ص 13.

9- عريض بن محمود العطوي ، منهج التعامل مع الشاهد البلاغي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ج8 1 ع 30 جمادى الأولى 1425
10- عبد العزيز العسكر مناقشات لمسائل الإيضاح: http://www.ahlalloghah.com/showthread
11- ابن حجر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار المعارف، حيدر أباد،دط ،1349 هـ ،ج2 ، ص 352 .
12 -ثناء عياش الجهود البلاغية للتفتزاني دار وائل للنشر والتوزيع ، عمان ،ط1، 2006، ص 235
13-القزويني ، الإيضاح ، ص 96.
14-المرجع نفسه ص 96.
15 -التلخيص 30-31.
16- محمود الخالدي العقيدة وعلم الكلام في مناهج البحث والتفكير الإسلامي شركة الشهاب، الجزائ، دط1989.ص45
17-أمين الخولي مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة،ط1 ،1961، ص 145.
18 -الإيضاح ص 35.
19- التلخيص ص49-50.